فصول من

تجديد رسالة الغفران

بقلم خليل هنداوي

— ١ —

لا تحاول ان تعرف تاريخ هذه الاوراق المبعثرة ، لانها كتبت في زمان لا تاريخ فيه ، وفي مكان لم يتقيد بحدود المكان . تستطيع ان تقول انها جاءت من اللانهاية ... ولكنك ستكون حريصا على قراءتها ، لانها تحمل اول قصة استطاعت العبور من مكان مقطوع بينه وبين كل مكان .

لا ادري من امري شيئا يوم نهضت ... وكل ما استطعت استرجاعه من امر الدنيا العاجلة انني كنت في مدينة « حلب » في داري ، يحيط بي اهلي ، وانا بين تلهف ، وتوجع ، ولا ازال اذكر تلك الملامح التي كانت تنبسط حينا لي ، وتنقبض عيني حينا ... ثم بدأ حجاب كثيف من الظلام يحط على عيني ، وراحت انفاس ثقال تغدو مني وتروح ، وانا غائب طريح ... ثم لم اعد اعي من امري شيئا . ولكني كنت ادري اين يستقر بي المقام ، وفي اية زاوية من زوايا المقبرة اعدوا لي قبري ... ومن قبل ألقيت نظري ، وانا حي ، على هذه الشقة المظلمة التي ستتحول فيها عظامي رمادا ، ثم هباء منثورا . ولكنها كانت كل شقة تنحدر فيها الاحلام ، وتبرد فيها الحياة ... وقد جاءني ، وانا على ضفتها ، ان انمثل القيامة الكبرى وكيف نخرج من اجداثنا حين ينادي المنادي مهطعين خاضعين ...

ولكني ما كنت ادري ان يكون ذلك عاجلا ، كأن لم يكن بينه وبين الماضي الا امس واحد ، او اقل من امس . لان حياتنا المتطاولة بين العهدين لم تكن الا تخديرا للحياة ... فمن اين الوعي ؟ ولماذا الحس في عالم تتجمد فيه مقاييس الزمان ، حتى تصبح لا قيمة لها ؟ وهل كان الزمان الا حياتنا بلحمها ودمها ؟ فلما تجردت من اللحم والدم لم يعد الا ترابا مثلنا .

في هذا الجو المخدر ، الغارق في الفناء ، سمعنا فجأة نافخ الصور ، يعلن النفخة الاولى والثانية والثالثة ، وتنقلب الارض ظهرا على بطن ، وبطنا على ظهر ، كأنها هي التي تحيا وتتحرك معنا هذه المرة من موتها ... وما عسى يكون تاريخ الارض لولا هذا الكائن الحقير ... الانسان .

زال عني الخدر قليلا قليلا ... وعاد الي وعيي ، فانا بين الشك واليقين ...

ــ هل عدت الى الحياة حقا ؟

ولكن كيف اكذب عيني ، وانا ارى الارض ، في كل مكان ، وينتفض من فيها ؟ وينقلب التراب هياكل عظمية ونكتسي الهياكل لحما ؟ وقفنا واخذنا ندور حول قبورنا ، ونسير بدون غاية ، دون ان نتعارف . والغريب فينا ان حواسنا عادت الى ما كانت عليه .

ويبدو ان الله ــ جل جلاله ــ اختار لهذا البعث يوما من اشد ايام الدنيا حرا واسكنها ريحا . فما عدت ارى الا هاربا يعدو من الحر ، يطلب ظلا او مقيلا ، ولا اسمع الا تأوهات الظمأى على كل طريق . فصبرت صبرا جميلا ، حتى طال علي الامد ، واشتد بي الظمأ ، وانا رجل سريع العطش ، فافتكرت بنفسي ، وقارنت بين ما انا فيه وما ينتظرني ، فوجدت الانتظار امرا يطول لا قبل لي باحتماله . فخطر لي خاطر التعجيل في فحص حسناتي وسيئاتي . فسألت الملك المختص بشأني عن سجلي في الحياة الدنيا ... فوالهفتاه ! لقد كانت الحسنات كأزهار بواكير الربيع في الارض المجدبة . حسنات قليلة لا تقدم صاحبها ولا تغنيه شيئا ... ولكني وجدت ، في نهاية السجل، صك التوبة الذي قدمته قبل ان افارق الدنيا ، فغمرني روح من الاطمئنان ، وادركت ان حظي في الاخرة لن يكون الا خيرا .

— ٢ —

مع حراس الجنة

استعدت روعي قليلا ، ولكن الظمأ ألهب احشائي ، والعرق اغرق ثيابي . وليس علي من الثياب الا ما يحجب سوأتي . وانه لظمأ ما ذكرت له مثيلا في الحياة الاولى . وكان من الحق ان يوردني الهلاك . ولكن ... لم يبق ، هنالك ، من موت . واخذت الايام تتعاقب علينا ، ونحن في موقفنا ، لا نتزحزح .

وفجأة اطمعني خاطر كاذب ، كالذي كان يخطر لنا ، لماذا لا انقدم من هذا الحارس الذي يحول بيننا وبين الوصول الى الجنة ، وانظم فيه قصيدة تهز قلبه ؟ فنظمت قصيدة وسمتها باسم « رضوان » ، خازن الجنان ، واخذت ازاحم الناس ، وادفع بهم عن اليمين وعن الشمال ، حتى اعتليت شجرة سامية ، فبدا لي « رضوان » رابضا على الباب . وكنت اتخيله ملكا كريما ، مستتر الملامح ، تنشر ابتسامته الاطمئنان في النفوس ، فاذا هو كشرطي قابع بثيابه الرمادية ، ووجهه الصلب ، ونظرته الشزراء ، لا يهتم بعابر ، ولا يأبه لسائل ... فأسمعته ابياتي ، فكنت لا اسمع غير صوتي ، دون ان يحفل بي ، او يأبه لما اقول .

وقفت هذا الموقف اياما ، وانا اكرر عليه ما نظمت ، فلا يزداد الا صمما واعراضا عني . فدفعني الطمع الى نظم قطعة اخرى موسومة باسم « رضوان » ثم دنوت منه ، وفعلت كفعلي الاول . فكنت كأنني اسمع صخرة لا تحس ولا تشعر . ولكني لم أيأس ، فاعدت عليه الكرة ، دون ان اصل الى شيء ، فبت اشك في انه يفهم العربية ، او على الاقل ، يفهم الشعر ... فذهب تعبي سدى ، وتحطمت ابياتي دون ان اصل الى امل . فقلت بنفسي :

ــ سأقبل عليه ، واناديه لعله يفهم ندائي .

دعوت بأعلى صوتي :

ــ يا رضوان . يا امين الجبار الاعظم على الفراديس ، ألم تسمع ندائي بك ، واستغاثتي اليك ؟

فقال :

ــ لقد سمعتك تذكر « رضوان » وما علمت مـا مقصدك ؟ فمـا الذي تطلب ايها المسكين ؟

فقلت :

ــ انا رجل لا صبر لي على العطش ، وقد استطلت مدة الحساب. ومعي صك بالتوبة ، وهي للذنوب كلها ماحية . اضف الى ذلك انـي مدحتك بقصائد كثيرة ، وشعر كثير .

فقـال :

ــ وما هذا الذي تسميه شعرا ؟ فاني لم اسمع بهذه الكلمة قط الا الساعة .

فأجبتـه :

ــ الشعر كلام موزون كان اهل الدنيا يتقربون بـه الى الملوك والسادات ، فجئت بشيء منه اليك لعلك تأذن لي بالدخول الـى الجنة ... فقد استطلت الوقوف ، وانا رجل ضعيف لا صبر لي ... ولا ريب اني ممن يرجو المغفرة ، وتصح له بفضل صك التوبة .

فقـال :

ــ بئس ما حدثك به ظنك . أتأمل ان آذن لك بالدخول بغير اذن من رب العزة ؟ هيهات . لن تدخلها ، ولن تنظرهـا قبـل ان ينتهي حسـابك .

تركته يائسا ، وعدت لتبتلعني هذه الامواج الزاخرة من الناس الذين جاءوا من كل مكان بعيد . ولكني ، منيت نفسي بأن اقصد خازنا آخر ، لعله يذهل عن النظم . او ينخدع بما اقدم له . فعدت الـى مجاهدة الناس حتى بلغت خازنا اسمه « زفر » وهـو يختلف عـن رضوان بأنه كان اقرب الى الناس ، وملامحه تدعو الى الايناس . فنظمت فيه قصيدة ، وقصيدتين ، ولم اترك وزنا مقيدا ولا مطلقـا الا طرقته . وهو يلتفت الي ولكنه لا يتكلم ، فكأنه لا يفهم . فاقبل علـي يسألني مبتغاي . فزادني ذلك طمعا في الاستفادة منه ، فقلت له :

ــ رحمك الله . كنا في الدار الذاهبـة نتقرب الى الرئيس او الملك بالبيتين او الثلاثة ، فنجد عنده مانحب ، وقـد نظمت فيـك الان ما لو جمعته لكان ديوانا . وانت انت لاتتحرك ، ولا تتأثر .

فقـال :

ــ لا اشعر بالذي تقصده ، ولكني اشعر بانك تردد كلاما موزونا موسيقيا ذكرني بما كنا نسمعه من « ابليس » واعوانه . وكنا نمنع عن الاصغاء اليه خشية ان يعبث بقلوبنا ، ويخرجنا عن طاعة الله . انمـا هو للجان ، ثم علموه ولد آدم لاضلالهم .

قل لي الآن ما بغيتك ؟

ذكرت له ما اريد ، فقال :

ــ والله ، ما اقدر لك على نفع ، ولا املك لخلق من شفع . فمن اي الامم انت ؟

فقلت :

ــ من امة محمد بن عبدالله .

فقـال :

ــ صدقت ذلك بني العرب . ومن تلك الجهة اتيتني بالشعر ، لان ابليس اللعين نفثه في اقليم العرب فتعلمه نساء ورجـال . وقد وجب علي نصحك ، فعليك بصاحبك لعله يوصلك الى ما ابتغيت !

وهكذا تركت هذا الباب الآخر ، وقد يئست من طروق اي باب ، وعلمت اني في عالم ، لا تنفع فيه وساطة ، ولاتجوز خديعة ، وعدت لاغرق في جحيم من الحر الذي يشوي الابدان ، والظمأ الذي لا يرويه شيء ... حتى غبت في هذه القطعان الهائمة على وجوهها ، ولكـل شـأن يغنيه .

ــ ٣ ــ

جعلت اتخلل العالم ، فاذا انا برجل عليه نور يتلألأ ، وحواليه رجال تأتلق منهم انوار . فقلت : من هذا الرجل ؟

فقيـل :

ــ هـــذا « حمزة بن عبد المطلب » ! وهؤلاء الذين حوله مــن استشهد معه من المسلمين في « احد » !

فيا للمخيلة الواثبة ! اخذت احدق في هذا الوجه الذي لا يزال يوحي بالقوة التي تتجلى في ملامحه ، والبطش الذي كان ينحدر عنـه مشركو قريش فارين ، مملوئين رعبـا .

رأيته ، على جواد اشهب ، تكاد قوائمه تهتز راقصة بـه ، كأنه لا يدري بما يقاسي هؤلاء الناس الذين يمشي بين صفوفهم ، ولكنـه ليس الى السلم يدنو ، وانما هو بزي المحارب ، كأنما ، يوم هب مـن مرقده ، فتح عينيه على خصمه « وحشي » الاسود الـذي انفذ اليـه نبلته غدرا ، فقتله بها . فهو يريد ان يلقاه ليمسك بخناقه ، ويريـه كيف يجب أن تواجه البطولة البطولة ... ولكنه لماذا يبحث عـن خصمه هذا ؟ وانه ليمشي في موكبه مرضيا عنه ، ولا تزال عينـه توحي بالنبلة التي أثبتها في جسم حمزة ، ولا تزال يده المطوية تنبيء كيف اشرعها ثم انتزعهـا ؟ ان « وحشيا » يمشي خلف حمـزة ، لا ليختلس فرصة ثانية ، ولكنه يريد ان تقع عيناه عليه ، لينـال منـه المسامحة ...

وكأن « حمزة » قد لمح « وحشيا » واغضى عنه عينيه ، لا ليقطع رجاءه من مسالمته ، وهو يعلم ان الدار الاخرة لا نصيب فيها لحقـد ولا عداوة ... وماذا عسى يريد من « وحشي » وقـد دخل الاسلام ، ولم يكتف بالاسلام الخالص ، لانه يعلم انه ارتكب في حياته خيانة ، اذا محا الاسلام صورتها ، فهي لا تزال ماثلة في الضميرالحي ، وكيف يزول اثرها اذا لم يقدم بين يدي الله اثرا رائعا يعفو كلوم مـا جنت يداه ؟ وما كان « لوحشي » انيملك هذه الراحة ، وينعم ببر الاسلام الا بعد ان انفذ نبلته ، مرة ثانية في صدر « مسيلمة » الكذاب ، فاجتمع على نبلته دم خير الناس ، ودم شر الناس .

واذن ، فيم يرسل حمزة عينيه بعيدا في هذا الزحام ؟ وقد كـان يغني عن هذه الجولة في هـــذا الحر الشديد ؟ ألعله يريد ان يرى « هندا » ولا يزال في كبدها من كبده ، وفي يدها من جثته . ايراها في هذا الموقف ، متخذة من اذنيه وانفه قلائد ؟ ام ان الاسـلام ــ يـا حمزة ــ غسل كل شيء ... فلا سبيل ، بعــد اليوم ، الى ثأر او انتقـــام !

ولكني تخيلت سريعا مأتم حمزة ، وقد هتفت النسـاء حول جثته المشوهـة :

صفية ! قومي ولا تعجزي .. وبكي النسـاء على حمزة !

وانه لمأتم اجتمعت على احيائه عادات الجاهلية ، دون ان يكون للنبي علم به . حتى اذا جاء النبي ليواري جثمانه لم يستطع ان يمتلك نفسه من الوجد والحزن والجزع ، لما حل بحمزة ... وشاء ان ينهى عن هذا المأتم ، فسبقت دمعة محرقة كلامه ، فآثر السكوت ... وتوارى حمزة ، ولكن جراحاته المثلة به ظلت حية في ناظريه ...

ــ لئن مثلوا به فلن نمثل بأحد . لان النبوة بريئة من شهـوة الانتقـــام .

وهكذا يغيب حمزة ، وصحبه في مقبرة تنام في ظل أحد .

أفقت من خيالي ، وقلت بنفسي :

ــ الآن جـاء دور نفع الشعر ، الشعر عند هذا أنفق منه عنــد خــازن الجنان .

فعملت ابياتا على روي البيت السابق ، وجئت حتى دنوت منه ، فنـاديت :

ــ يا سيد الشهداء ! يا عم رسول الله ! يا بن عبد المطلب !

فلما اقبل علي بوجهه انشدته الابيات فقال :

ــ ويحك ! افي مثل هذا الموطن تجيئني بالمديح ؟ ام اسمعت الاية؟ « لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ؟ »

فقلت :

ــ البقية على الصفحة ٤٤ ــ

تتمة تحديد رسالة الغفران
بقية المنشور على صفحة ١٦

ـ بلى قد سمعتها ، وسمعت ما بعدها : « وجوه يومئذ مسفرة، ضاحكة مستبشرة . ووجوه يومئذ عليها غبرة ، ترهقها قترة ، اولئك هم الكفرة الفجرة » .

فقال :

ـ اني لا اقدر على ما تطلب ، ولكني انفذ معك رسولا الى ابن اخي « علي بن ابي طالب » ليخاطب النبي في امرك .

فبعث معي رجلا ، قص قصتي على امير المؤمنين ، فسألني :

ـ اين صحيفتك ؟

مددت يدي الى جيبي ، فلم اجدها ، فأعدت يدي دون ان تقع عليها ، فاستطير عقلي ، واخذني الدهش . وقد كان يمكن عليا ان يعرض عني لولا ما رأى من اضطرابي وقلقي ... فتذكرت انني كنت في مكان ازدحم فيه الناس . ورب نشال خبيث بارع نلهاني ، فظن انه يستطيع تبديل صحيفته بصحيفتي ، وزاده طمعا ما رأى من اقدامي على الخزنة مطمئنا مستعجلا . او ربما سقطت مني ، خلال الزحام ، دون ان اشعر بها . فوالهفتاه على هذا الكتاب الذي فيه ذكر التوبة! فاستمهلت عليا لحظة اجده فيها ، فرجعت أطلبه حيث كنت فما وجدته ، وعدت اظهر الوله والجزع .

فقال امير المؤمنين :

ـ لا عليك ! ألك شاهد بالتوبة ؟

فقلت :

ـ نعم ، قاضي « حلب » وعدولها .

فقال :

ـ بمن يعرف ذلك الرجل ؟

فقلت :

ـ بعبد المنعم بن عبد الكريم ، قاضي حلب ـ حرسها الله ـ في ايام « شبل الدولة » .

فأقام هاتفا يهتف في الموقف :

ـ يا عبد المنعم بن عبد الكريم ، قاضي حلب في زمان « شبل الدولة » هل معك علم من توبة « علي بن منصور الحلبي الاديب » ؟

لم يجبه أحد ، فأخذني الهلع والرعدة . ثم هتف الثانية ، فلم يجبه مجيب ، فكدت اصرع الى الارض . ثم نادى الثالثة ، فأجابه قائل يقول :

ـ نعم ، قد شهدت توبته ، وذلك بآخرة من الوقت ، وحضرت متابه عندي جماعة من العدول ، وانا يومئذ قاضي حلب واعمالها ، والله المستعان ...

فعندها نهضت ، وقد اخذت الرمق ... فسألني عن بغيتي من هذا اللقاء الملحف ، فذكرت له ما التمس ، فأعرض عني وقال لي :

ـ انك تروم صعبا ممتنعا ... واليس لك اسوة بولد ابيك « آدم » ؟

رجعت عنه خائبا ، وايقنت ان لن ينفعني شيء الا اصطباري على الشدة . ولكن العطش اشتد بي ، حتى شممت ريح الماء من بعيد ، فزاحمت ، وهممت ، فاذا هوالحوض المورود الذي اعده الله لعباده في هذا الموقف ، فضانكت الناس ، وكدت امشي على مناكبهم ورؤوسهم ، فما استطعت الوصول اليه ...

ولكن العطش قادني الى المخاطر ، فنقبت منه نقبات لم اشعر بالظمأ بعدها . وهنالك ، بدا لي ان اتأمل في هذه القطعان الواردة عليه ، كأنها جرب الابل ، طليت جلودها بالقطران . وهم كلما حملوا انفسهم على الورد ، واقتربوا منه ذادتهم الزبانية عنه بعضي تضطرم نارا . فيرجع احدهم ، وقد احترق وجهه او يده ، وهو يدعو بويل وثبور ...

صدر حديثا

للكاتب الانكليزي الشهير

كولن ويلسون

ضياع في سوهو

ترجمة يوسف شرورو وعمر يمق

رواية رائعة صور فيها مؤلف « اللامنتمي » تجربة نابضة بالحياة قام بها شاب بين غرباء الاطوار والفنانين في احد احياء لندن الشهيرة ، بلهجة جديدة هي سر ابداع الكاتب الذي تترجم آثاره الى جميع لغات العالم .

وقد حصلت « دار الاداب » على حق ترجمة هذه الآثار الى اللغة العربية ، وستقدم بعد هذه الرواية عددا من كتبه الجديدة التي صدر بعضها ولم يصدر البعض الاخر باللغة الانكليزية .

الثمن ٤ ليرات لبنانية . منشورات دار الآداب

آن لي ان افكر في امري ، بعدما سكن عطشي ، فقلت اطوف على العترة المنتخبين ـ وهم ذرية الرسول ـ فأتوسل اليهم لعلهم يجدون لي وسيلة . فحزمت امري اليهم ، فوجدتهم في نجوة من الزحام ، قد أعطاهم الله امانا واطمئنانا . فقلت :

ـ اني كنت في الدار الذاهبة اذا كتبت كتابا وفرغت منه قلت في آخره : « وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين ، وعلى عترته الاخيار الطيبين » أليست هذه الصلاة حرمة لي ووسيلة ؟

قـالوا :

ـ ما نصنـع بـك ؟

فقلت :

ـ ان مولاتنا ـ فاطمة ـ قد دخلت الجنة مذ دهر ، وانها تخرج في كل حين ، مقداره اربع وعشرون ساعة من ساعات الدنيا الفانية ، فتسلم على ابيها ، وهو قائم لشهادة القضاء ، ثم تعود الى مستقرها من الجنان . فاذا هي خرجت كالعادة ، فاسألوا في امري بأجمعكم ! فلعلها تسأل اباها في .

فانتظرنا حتى حان خروجها كالعادة ، ونادى هـاتف :

ـ غضوا ابصاركم يا أهل الموقف ، حتى تعبر فاطمة .

غض الناس من ابصارهم ، وشقوا الطريق لهودجها ، وقد اجتمع عليها من (آل ابي طالب) خلق كثير ، ذكور واناث ، ممن لم يشرب خمرا ، ولا عرف قط منكرا ، فلما رأتهم قـالت :

ـ ما بال هـذه الجماعة ؟ ألكم حـالة تذكر ؟

فقـالوا :

ـ نحن بخير ... غير اننا نريـد ان نسرع الى الجنة قبـل الميقات ، اذ كنـا آمنين ناعمين ، لا يحزننا الفزع الاكبر .

فضحكت لهم ، وكان معها امرأة اخرى تجري مجراها في الشرف والجلالة ... انها خديجة ! ومن ورائهما شاب على افراس من نور ... هم ابناء الرسول ! وقد همت بالرحيل ، فقالت لها تلك الجماعة التـي سـألت :

ـ هذا ولي من اوليائنا ، قد صحت توبته ، ولا ريب انه مـن اهل الجنة ، وقد توسل بنـا اليك في ان يراح من اهوال الموقف ، ويصير الى الجنة ، فيتعجل الفـوز .

قالت لاخيها ابراهيم :

ـ دونـك الرجـل !

فقـال لي :

ـ تعلـق بركـابي !

وجعلت تلك الخيل تتخلل الناس ، وتنكشف لها الامم والاجيال ، حتى اذا عظم الزحام طارت في الهواء ، وانا متعلق بالركـاب . فقلت بنفسي :

« أهذا هو الفرس المجنح الذي تحدث عنه السحرة في ايامنـا ، ام هي الطائرة التي زعموا انها ستنشق السحب بعد أيامنا ؟ »

كنت انظر الى الارض فلا ارى من رسومها شيئا ، لان امواجا من البشر غطت فيها كل مكان ، ولا اعلم كيف اعطيت القدرة والجرأة على هذا التعلق في الهواء ، وانا الذي كان يخيفني علو الغصن القريب ، والجدار الوطيء . وما زال أمري هذا الامر حتى وقفت بنا الركـاب عند « محمد » ! فيـا للجـلال !

ـ انه تاريخ الارض ورسول السماء . انه بدأ بالعذاب ، ككل نبي ، وكل عبقري ، ولكنه انتهى نهاية الجبار الذي يتكىء على البناء الذي رفعه بيديه ... ان قومه لم ينكروه ...

التفت اليهم ، وسألهم :

ـ مـن هـذا الغريب ؟

قـالت لـه :

ـ هـذا رجل سألت فيه عشيرتنا .

فقـال :

ـ حتى ينظر في عمله !

وما اعجل ما فعل ! سأل عن عملي ، فوجده في الديوان الاعظم ، وقد ختم بالتوبـة . فشفع لي ، فـأذن لي في الدخول ، فتعلقت بالركاب مرة ثانية . وهي في طريقها الى الجنـة ...

انتهيت من ذلك العالم الزاحف في مستنقعات عمله ، وبدأ صخبه يخف وقعه عن آذاني ، وراح يحل محله جرس موسيقي خفيف هـو اشبه بجرس النسـائم حين تتخلل الغابة المورقة . والسماء بـدأت تعود الى زرقتها الصافية بدون شمس ولا قمر . ولكنها زرقة ملتمعـة بضوء باهر لا يؤذي وهجه ، ولا يتوعده ظلام . وكنت انظـر الى تحت ، فأرى ذوائب عالية ، كأنها تريد ان ترتفع لتتشبث بي ، وروابي زاهية في السماء ، مذهبة بلون اصيل متموج . وخلال الغابات والروابي طرق ضيقة تلوح خالية احيانا ، واحيانا تجوزها جماعات متفرقة ، تمشي رويدا الى الهدف الذي لا بد منه ...

ـ ان الهدف هو الصراط ..!

هذا الصراط يمتد كشريط رفيع ممدود على هاوية لا قرار لهـا لا تجرؤ العين ان تنفذ اليها لما فيها من اعماق ذاهبـة في اعمـاق الارض . ولا بد لمن اراد الضفة الثانية ان يعتلي هذا الصراط . اقبلت عليه ، فوجدته خاليا لا احد عنده ، الا انسانا قد سبقني بمقدار . لقد رأيت هذا الانسان يعتلي الصراط ، ويتماسك ، ويتساقط ، ولكنه لا يزال يتشبث . لان من رجحت حسناته علـى سيئاته اعطتـه القوة والجلد . ومن كانت سيئاته فوق حسناته هوى عن الصراط الى حيث لا يرجو صعودا ، وما هي الا لحظات حتى رأيت الرجل يختل توازنـه وتهوي رجله ، فاذا هو قطعة محطوطة من الاعلى الى الاسفل ، ليس لها الا صفير الهواء ، كأنما تترنح ترنحا اخيرا ، فأغمضت عيني ، وعزمت ان اعود ، لولا ان « فاطمة الزهراء » قالت لجارية من جواريها :

ـ ان صاحبنا لم تعد له طاقة على العبور ! فأجيزيه !

فجعلت تمارسني ، وتزاولني ، وانا أتساقط عن يمين وعن شمال ولا يزال مصير من قبلي يضرب عيني . فقلت :

ـ يا هذه ! لماذا المعالجة المضنية ؟ ان اردت سلامتي فاستعملي معي قول القائل في الدار العاجلة !

« ست ان اعياك امري فاحمليني زقفونه !!! »

قـالت :

ـ ومـا زقفونه ؟

قلت :

ـ هي ان يطرح الانسان يديه على كتفي الآخر ، ويمسك الحامل بيديه ، ويحمله الى ظهره .

ولم اتركها تفكر في الامر او تتصور ، وانما بادرت الى ظهرها ، وطرحت يدي على كتفيها ، فتشبثت بي اكثر مما تشبثت بها ، وكادت تذهلني رائحة جسدها الطيبة ، فأصبحت بين ان اهتم بما انا فيه ، وبين ما اوجدته هذه الجارية في نفسي من حسرة . وراحت تجوز بي ـ على الصراط ـ كالبرق الخاطف ، وصارت تحدثني نفسي الكذوب لو يطول الصراط اكثر مما يطول وانا ناعم على هذه الحال ، مركبي جسد لين ، ومطيتي جارية من جواري الخلد . حتى اذا جزنـا الصراط حطت ثقلي عن منكبيها ، والتفتت الي ضاحكة ، كأنها تسائلني عـن الرحلة . فقلت بنفسي :

ـ سبحان الله ! كيف جعل الحرام حلالا ؟ لو كان هذا يقـع في الدنيا لادركنا الاذى والجلد ، اذا فاتنا الرجم . وللناس ابصار تنفذ الجدران في هـذه الحالات ، ومسامع مرهفة تسترق صوت قبلـة الحبيب للحبيب . ولكن . ما اجمل أن يصبح المحرم محللا ، والمتعصب متسـاهلا !

ولكن « الزهراء » لم ترد ان يطول التلهف فقـالت :

ـ قد وهبنا لك هذه الجارية ، فخذها كي تخدمك في الجنان !

فكانت الجارية الاولى التي شممت فيها ريح الجنة .

وهنا صرت الى باب الجنة ، فلمحت « رضوان » لا يزال يحمي مداخله ، فخفت ان يلمحني ويضايقني ، فتقدمت اود الدخول ، فابتدرني :

ـ هل معك من جواز ؟

فقلت :

ـ لا !

فقال :

ـ لا سبيل لك الى الدخول الا به !

فكان الخطب اشد ما وقع علي في رحلتي كلها : أيذهب تعبي كله عبثا ؟ أأعود الى الموقف طلبا للجواز ؟ والصراط ؟ ومن لي بجارية ثانية تحملني عليه ؟

وفجأة تواردت على فكري حيلة ، اذ وجدت داخل الباب شجرة صفصاف ، فقلت له :

ـ اعطني ورقة من هذه الصفصافة حتى ارجع الى الموقف ، فآخذ عليها جوازا .

فقال ، وكأنه ادرك ما ترمي اليه حيلتي ، والملائكة ـ ولا سيما من كان منهم ـ رضوان ـ لا تعوزهم الفطنة .

ـ هيهات ! هيهات ! لا اخرج شيئا من الجنة الا باذن من العلي الاعلى ـ تقدس وتبارك !

فما زادني جوابه الا حيرة وارتباكا . انه ملك يصون القانون ، ولا يأذن لنفسه بشيء وان رضي عنه عقله وضميره ، لانه لم يأت في القانون . وهو يخشى ، بعد ذلك ، كل بادرة ان يحاسب عليها . ولذلك لا يأذن لنفسه بالخروج على القانون ، وان كان ـ احيانا ـ لا مقتنع له به .

وما كان لي فيما انتهيت اليه الا ان اردد :

ـ انا لله وانا اليه راجعون !

للتمتع بعطلتك الصيفية

مكتبة انطوان

تقدم لك

احسن الكتب العربية

التي توفر لك المتعة والمنفعة

ولكني قبل ان أنكفىء راجعا ، نظرت اليه ، وتمنيت لو اعطى القدرة على مصارعته ، مهما آل اليه أمر الصراع ، لاري هذا المغرور عاقبة زهوه وبخله . ولكن انى لنا ان نصل الى مصاولة الملائكة ، وهم يتمتعون بالقوة الخارقة !

قلت له :

ـ لو ان للامير « ابي المرجى » خازنا مثلك ، ما وصلت انا ولا غيري الى درهم من خزانته ، ولو ان ـ على خزائن الحكومات ـ وزيرا مثلك يحرس اموالها لما قبض العاملون فيها مرتباتهم ومعاشاتهم .

وما كدت انهي مقطعي حتى شعرت بيد عنيفة جذبتني جذبة قوية ارتفعت معها كأنني عصفور حقير ألفى نفسه ملقى بين رياض الجنة من دون اذن رضوان .

تلك يد ـ ابراهيم ـ الذي ألفاني حيل بيني وبين الدخول ، وانا في حوار مع رضوان : فأنهى الحوار بهذه الجذبة القوية التي اسلمتني من شدائد أيام الموقف ، وقد احصيت ايام وقوفي فكانت مدة ستة اشهر من شهور الدنيا . ونعتبر المدة قليلة اذا قيست بمن يقفون الاعوام . ومنهم من يفقد عقله ، ومنهم من يخسر حسه ، ومنهم من يضيع حفظه لما يجد من الاهوال . اما انا فقد انعم علي بالسلامة ، ودخول الجنة ، وبقاء عقلي الذي هو من اكبر النعم عندي في الدنيا والآخرة .

***

في رياض الجنة

ـ ١ ـ

أحقا اصبحت الآن في أمان من رضوان ؟ ليتني اصدق انني تجاوزت جدران الجنة الحصينة ، وغدوت امشي في رياضها الغناء !

هذه معاريج من الفضة او الذهب يعرج بها سكان الجنة من عش الى عش ... وهذه اشجار لا تنتهي ظلالها ، كل شجرة منها تكاد تأخذ ما بين المشرق الى المغرب . وارف ظلها ، لذيذ اجتناؤها . والولدان المخلدون في ظلال تلك الشجر قيام وقعود ، قد اتخذوا مقاعدهم منذ خلقت الدنيا ، وهم ينتظرون أن يرد عليهم من شاء الله ان يكونوا نصيبه في دار الخلد ، جزاء له على حرمانه في الدنيا ... وليس ، الا في وعود السماء ، ان يكون العطاء جزاء الحرمان والاباء ! ومن اصول تلك الشجر تتدفق انهار عذاب ، صافية اللون ، من شرب منها النقبة ادرك كيف يجري الخلود في دمه ... ذلك الخلود الذي كان يتشهاه الانسان في دنياه ، ولا ينال منه شيئا ... ثم اخترع لنفسه ما يظن به البقاء في عالم لا تأمن فيه الجبال الراسخة ان تفور !

تلفت ، فوجدت الناس مقبلين يتزاحمون على هذه الراح الدائمة ، يغترفون منها بكئوس عسجدية ، واباريق زبرجدية ، ويكرعون ... ثم يستزيدون ... فاذا هي جرعة لا وراءها سكرة ..! ثم يغترفون ، لعلهم يريدون ان يكونوا كالسكارى ... ولكن خمرتهم اليوم هي خمرة الصحو لا خمرة السكر !

اتراهم يفضلونها على بنت الكرمة في الدنيا ، وهم لم يذوقوا منها رشفة ؟

واأسفاه على صاحبنا « عدي بن زيد » الذي شغله الصيد والمدام في دنياه ، لو درى ما خبيء في هذه الرياض من اباريق صافية ، وخمرة عذبة لآثر ان يعاف اباريقه الاولى طمعا في هذه الاباريق التي لا تزداد على الصب الا فيضا . وكثيرون غيره ممن اغوتهم الدنيا ! ولعلهم معذورون حين وجدوا ان الخير العاجل خير من الوعد الآجل وما يهمهم ان يسكروا الآن ، وقد سكروا امس ..؟ واصبحوا اخوان لذة لا تنساها اضالعهم . وما يدريك انهم يعتقدون هذا غرورا آخر لا يفرق عن الغرور السابق . ومتى كانت اللذة الدائمة ذات لذة لا تنحسر ؟ أليس بعدها من ملل يجعلها اخت اللذة العابرة ؟

لم أرد كثيرا ان اجعل عقلي مطية هذه الافكار المتناقضة ، فعاودني الملل من مقامي ، وجاء بخاطري ان اطوف في هذه الرياض الفسيحة لعلي أرى جماعة من هؤلاء الشعراء هيجتهم الخمرة، وعالجتهم الذكرى . فركبت مطية سهلة من مطايا الجنة ، فهبت بي تجوس خلال هذه الرياض المشعشعة ، والقصور الياقوتية ... وانا في جو لا حر فيه ولا برد ... اريد كل مكان ، ولا اريد مكانا ... اريد ان اصرف سأم الخلود عن نفسي ... وانا الذي شربت نفسي محبة الفناء ... فاذا انا امام شيخنا الاعشى ... ولكنه ظل له هيئة الاعشى ... ولكنه ليس بالاعشى نفسه ... لقد عرفت الاعشى شيخا كبيرا ، ضعيف البصر ، هزيلا من الكبر ... وأراه الآن شابا غرانقا ، يختال في برد الشباب ....

ــ أأكذب ناظري ؟ أتتحول الاشياء سريعا من قالب الى قالب ؟

حييته وسألته بلهفة :

ــ أراك هنا ؟

فقال :

ــ وأين تريد ان اكون ؟ انا ذلك الرجل الذي من الله علي بالمغفرة بعد اليأس منها .

فسألته :

ــ وكيف كان خلاصك من النار ؟

فأجابني :

ــ لا تعجب ! بينما كانت الزبانية تسحبني الى النار ، رأيت رجلا في الساحة يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ، والناس يهتفون به من كل أوب : « يا محمد ! يا محمد ! الشفاعة ! الشفاعة ! انا احسنا الى البؤساء ... ولم نمنع الصدقات ، واقمنا بعض الصلوات ... فكان منهم من يجاب الى الشفاعة ، ومنهم من لا تزال الزبانية يسوقونهم الى مستقر العذاب ... فلا ادري كيف ذكرت « محمدا » من بين اسماء الرجال الذين مدحتهم في حياتي ... لقد سمعت « بمحمد المكي القرشي في نهاية حياتي او سمعت الكثير عن دعوته الى الله والخير . فغمرت دعوته نفسي . وما شعرت الا بلساني يردد ابياتا في مدحه قبل ان أراه . فركبت ناقتي ، وقصدت وجهه في مدينة يثرب ... وانا في الطريق رأيت جموع قريش والاحلاف تتهيأ للوثوب عليه . فرآني سيدها « ابو سفيان » فسألني :

ــ الى أين يا أعشى قيس ؟

قلت :

ــ الى صاحبكم !

فقال :

ــ لعل دينه استغواك !

قلت له :

ــ اذا صح ما سمعت عنه فانه وافق هوى نفسي . وليس لي بعد الايمان بالله ، وبالحساب ، والبعث من مطمع . لاني أؤمن بها وانا في الجاهلية الجهلاء .

قال :

ــ هيهات ، هيهات ! أين حبك للخمر ؟ وهو يمنع الخمر .

فقلت له :

ــ وهل تطيب خمرة في مثل هذا العمر ؟

قال :

ــ وانه يمنع عن استخدام البغي ؟

قلت :

ــ ويحك ، وهل لهذا الشيخ المتهدم طمع في امرأة ؟

قال :

ــ وماذا تقول في عطاء نعطيه لك الآن على ان تعود الى بيتك ، وتنتظر ما يكون من شأننا حتى السنة الآتية . فان ظهر علينا عدت اليه ... وان ظهرنا عليه اكرمناك !

سكت لحظة ، ولا ادري اي شيطان في نفسي اغواني بقبول هذا العرض . فقدم لي ما جمعه من قريش ، ولفت ناقتي الى الوراء وقلت بنفسي :

ــ على اني تركت ورائي صبابة من الخمر اكمل شربها ، والتطرب بها ... ثم نترقب الحوادث ...

عدت طمعا ان اشرب هذه الصبابة ، ولكني ويا للاسف لم يكن لي اي نصيب في صبابة او رشفة من خمر . لقد أجفلت الناقة بي على باب بيتي ، فرمتني هالكا ... وما أحسست من بعد تلك الغشية الا اني في الحساب ... واحيانا يخيل الي اني لا ازال عائدا الى بيتي ... واني دخلت ... فأمد يدي الى خابية الخمر ... فلا ارى الا لألاء السراب ...

وانا على هذا الكرب الشديد قلت : استشفع بمحمد ... وعندي وثيقة تشهد بذلك فصرخت في ايدي الزبانية :

ــ يا محمد ! أغثني فإن لي بك حرمة .

فقال :

ــ يا علي ! بادره ، فانظر ما حرمته ؟..

فجاءني علي ، وزجر عني الزبانية . وقال :

ــ ما حرمتك ؟

فقلت :

ــ الا تذكر قولي في الدنيا « لن ارحم ناقتي ولن اشفق عليها من تعب ومن حفا حتى تلاقي محمدا ... »

قال :

ــ لقد ذكرت قولك الان يا أعشى قيس ! وكأني بقريش خافت أبياتك هذه ، فعملت على ردك .

فذهب علي الى الرسول وقال له :

ــ هذا أعشى قيس قد سمعنا مدحه فيك ، وشهد انك نبي مرسل .

فقال :

ــ هلا جاءني في الدار السابقة ؟

فقال علي :

ــ قد جاء ، ولكن صدته قريش ، وحبه للخمر .

وكانت لحظة صمت رهيبة ! خشيت فيها ان يغلب التردد على نفس الرسول ، كما غلب التردد علي نفسي في اتباع رسالته .

وبينا نحن في هذا الموقف ، اذا بسبع جوار يتراكضن من اقصى الطريق ، ويتعلقن بأهداب ثياب الرسول .

ــ الشفاعة ! الشفاعة له يا رسول الله !

فلبثت واجما في مكاني ، لا ادري شأن هؤلاء الجواري من أمري ...

ــ ما خطبهن ؟ وماذا يعرفن عن الاعشى في الدنيا ، حتى جئن يطلبن له الشفاعة في الآخرة ؟

فسألهن الرسول :

ــ ومن انتن ؟ وما خطبكن ؟

فانبرت احداهن ، واسترسلت في قولها :

ــ نحن كنا سبع بنات لأب عجوز ضاق بأمرنا ، واشتد عليه الا يخطبنا احد لفقرنا ... فعلم أبونا ذات يوم بأن الاعشى يوشك ان ينزل في مضارب قومنا .

فقال أبونا :

ــ هذا الاعشى صناجة العرب ... ما ذكر احدا الا نبه أمره ..

فلنسرع الى دعوته . لعله يتقبل دعوتنا ، ويذكرنا في شعره .

قلنا له :

ــ والى اي شيء تدعوه ؟

قال :

ــ ان لدينا بقية من خمر ، ونعجة نذبحها ونقربه ! وفعلنا ..! ويا لها من ليلة حين رأينا الاعشى يتخطى وحده بابنا ، ويقبل دعوتنا ،

ويأكل ن زادنا ... ونحن نحتفي به ، ونركض حوله ، ونغسل يديه ، ونبادله الضحكات والنكات ...

عن له ان يسأل أبانا عن شأننا ! فقال له ابي :

ـ هن بنات أخيك ! لا يجدن أزواجا يخطبونهن لانني خامل الذكر في القبيلـة ...

فاذا الاعشى يتجهم وجهه ، ويتـألم قلبه لمشهدنا ... وينشد على الاثر :

ولعمـري لاحت عيـون كثيرة الى ضوء نار ، باليفـاع ، تحـرق
تشب لمقرورين يصطليانهـا وبات على النار الندى « والمحلق »

عند ذلك اسعفتني الذاكرة ، وبادرتهن سائلا :

ـ هل انتن بنـات المحلق ؟

فاجبنني :

ـ أجل ... ولم يمض حول علينا حتى كانت كل فتاة منا عنـد زوج كريم ... لقد اشفق علينا في الدنيا ، ومدحنا لا طمعا ولا رهبـة ... ولكنه استجاب لشعور انساني كريم في نفسه وهل اكرم من هذا الشعور يا محمد ؟ لذلك جئنا نستشفع فيه ، وان لم يكن له الا هذا العمل الطيب لكفى ... لقد حضننا ، وسترنا ، فـي الدنيا ، فاستره في الآخـرة !

ضحك الرسول لهن وقال :

ـ حقا ... لقد وافق عمل الاعشى هوى الشريعة ...

وعند ذلك ، شفع لي ، فادخلت الجنة على الا اشرب فيها خمرا ... وها انت تراني استعيض عن الخمرة بهذه الانهـار من العسل ، وماء الحياة ... ولكني أسر لك بأن كل هـذا لا اجد فيـه لذة ولا سرورا ... لان نشوة من تلك الخمرة عندي تساوي ما حوت الدنيـا والآخرة . وان نفسي لتدفعني كثيرا الى نكث العهد ، فامد يدي الى انهار الخمرة الجارية ، فتفور الانهار بين يدي ... فلا اعود ارى منها شيئا ... وقد جرب كثيرون من اصدقائي ان يصبوا رشفة منها فـي فمي ، فلا يجري من ايديهم شيء ...

لعلك تغبطني على هذه الحياة ... ولكن ربما تعود بدون لذة ولا غاية اذا فقدت منها شيئا واحدا ... والخمرة ـ عندي ـ كانت عالما وحده ... فهل ألقاه مرة ثانية ؟

تركت الاعشى ، وعجبت لهـذه النفس المترددة التـي لا يزال يخالجها الشيء الكثير من مطامع الدنيـا ولهذا العذاب المرير الذي تذوقه وهي في جنات النعيـم ، وفجـأة رأيت قصرين شامخين تحنو عليهما الادغال ... فأعجبني هدوؤهما فدنوت من اولهما ، فرأيت وسما على بابه باسم « زهير بن ابي سلمى » والتـالي باسم « عبيد بـن الابرص » فازداد عجبي لهذين الرجلين كيف يكونان في هذا الموضع ، وهما اهل شرك ووثنية ؟ ولكن ما أضيق احكام الانسان ! يظن انـه أصاب في حكمه ، ثم لا يكون حكمه ، فـي سجل القدر ، الا خاطئـا . وكم رمى اهل الدين رجالا بالزندقة ، وهم عنـد الله أهـل ايمـان ! ولا حكم أضل واشد عنتا من حكم الانسان .

هاجني ذلك الى لقاء هذين الرجلين ... فابتـدأت « بزهير » الشيخ الكبير الذي سئم تكاليف الحياة ... فلم اعرفه . لاني وجدت شابا كالزهرة الجنية ، لم يعد يذكر كيف كان هرما ، ولم يعد يذكر كيف مل الحياة ... فسألته :

ـ بماذا غفر الله لك ؟ وانت رجل جاهلي ؟

قـال :

ـ لقد ابصرت الحقيقة بنفسي ، وسبقت تـأملاتي الاسـلام . فعلمت ان هنالك ربا عظيما فآمنت به ... وادركت أن خير ما يؤديه الانسان عمل صالح ، فدعوت اولادي الى عبادة الله ، وتلبية نداء مـن يدعو الى عبادته واذا لم يكن لي الا دعوتي الاقوام المتحـاربة الـى السـلام لكفى !

فقلت بنفسي :

سبحان الله ! اذا شاء الله هدى الانسان بدون ان يرتفع صوت بالهدى ... واذا شاء أضله وحوله من يهديه ... وهو ، بعد ذلك ، المسؤول عن هداه وضلاله ، فيا عجبا !

وتركته وهو يشرب الخمرة من باطية من الزمرد .

وعرجت على « عبيد » فاستقبلني بضحكة ماكرة ، وهو يقول :

ـ أن اهل الجنة ، حتى الاغبياء منهم في الدنيـا ، لا ينقصهم الآن الذكاء ... لعلك تريد ان تسـألني كيف دخـل هـذا الوثني الجنـة ..؟

فقلت :

ـ والله ، انك لا تزال ذكيا فطنا ... وكيف كان ذلك ؟

قـال :

ـ ان حالي غير حال هؤلاء الذين يتمردون على الجنة نفسها ، لاني ذقت طعم النار التي كوت جسدي اعمارا ... فعرفت الآن طعم الجنة والنعيم ... انني لا املك خيرا اتقدم به ، ولكني ، مع ذلك ، لم أيأس من المغفرة ابدا ... لقد تركت خلفي بيتا من الشعر أجزنـه مصيري ، فكان يدخل الى قلوب الصالحين ، فيرددونه ، ويزدادون به ايمانا ...

مـن يسأل النـاس يحرموه وسـائل اللـه لا يخيب

فما زال يتردد حتى اهتزت لـه السماء ، وسمعتـه الملائكة والاصفياء ... ففتشوا عن قائله ، فوجدوه يتقلب بين نيران السعير ... فطلبوا لي المغفرة ... حتى اطلقت من القيود والاصفاد ، ثـم شملتني الرحمة ببركة هذا البيت . وان ربنا لغفور رحيم ...

خليل الهنداوي

سلسلة المسرحيات العالمية

١ ـ البغي الفاضلة وموتى بلا قبور
بقلم جان بـول سارتر
ترجمة الدكتور سهيل ادريس والمحامي جلال مطرجي
الثمن ٢٠٠ ق. ل

٢ ـ ماريانـا
تأليف فديريكو غارسيا لوركا
ترجمة شاكر مصطفى
الثمن ٢٠٠ ق. ل

٣ ـ هيروشيما حبيبي
تأليف مرغريت دورا
ترجمة الدكتـور سهيل ادريس
الثمن ٢٠٠ ق. ل

٤ ـ لكل حقيقته
تأليف لويجـي بيراندلـلو
ترجمة جـورج طرابيشي
الثمن ٢٠٠ ق. ل

٥ ـ تمت اللعبة
تأليف جـان بول سارتر
ترجمة مجاهد ع. مجاهد
الثمن ٢٠٠ ق. ل

منشورات دار الاداب ـ بيروت